حميدة خالية من كل مضرّة وطعمهُ طيّب فلا يعافهُ احد وهو في علب متقنة الصنع يحتوي كلٌّ منها على ستة اقراص يكفي القرص منها لتليين المعدة . ومعها لائحة بالعربية والفرنسوية تبيّن خواص هذا المرقّي الدوائية ومنافعهُ الكثيرة وكيفية استعمالهِ فعسى ان يعتمد عليهِ اهالي البلاد اكتفاء بهِ عن الادوية الافرنجية المصنوعة لهذه الغاية فانها على غلاء ثمنها قلّما تخلو من المواد المضرّة وهو يباع في كل الاجزاخانات المعتبرة في القطر المصري

ذكرنا في الجزء الماضي ان الدكتور البارع امين افندي عطا نال الدبلوما الطبية من مدرسة قصر العيني الشهيرة بعد ان امتحن الامتحان المدقّق فيها . ويسرّنا الآن نشر ما نسمعهُ من ترديد الثناء عليهِ لمهارتهِ في صناعتهِ مع شدة عنايتهِ واهتمامهِ بمرضاهُ

فقيد الوطن . محمد شريف باشا

وهذا سبيلُ العالمينَ جميعهم فما النائبُ الّا راحلٌ بعدَ راحلِ

فُجِعت مصر بفقد وزيرها الخطير وكريم قومها محمد شريف باشا الشهير ولما كان رحمهُ الله ممّن نبغ بالمعارف كما نبغ بالسياسة واشتهر بحب العلم كما اشتهر بالادارة والرئاسة رأينا من الواجب علينا تلخيص ما علمناهُ بالخبر عن سيرة حياتهِ واثبات ما عرفناهُ بالخبر عن كرم اخلاقهِ وحسن صفاتهِ فنقول

وُلد الشريف سنة ١٢٣٨ هجرية الموافقة لسنة ١٨٢٢ مسيحية واختلفوا في مسقط راسهِ فقالت الجرائد انهُ القاهرة واخبرنا مَنْ يوثق بكلامهِ من اصدقائهِ انهُ الاستانة العليّة . وهو من عائلة تركيّة قديمة الحسب والنسب وكان ابوهُ قاضي قضاة مصر من قِبَل الدولة العليّة في ايام المغفور لهُ محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلويّة ثم عاد الى الاستانة واقام فيها زمنًا حتى عيّن لمنصب القضاء في الحجاز في ايام السلطان محمود فتوجّه اليها ومرّ في طريقهِ على مصر وابنهُ الشريف معهُ وعمرهُ يومئذٍ بضع سنين . فلما رآهُ المغفور لهُ محمد علي باشا تفرّس فيهِ الذكاء والنجابة فاحبّ بقاءهُ عندهُ وتعليمهُ مع بنيهِ املاً بان يكون لمصر سندًا ولبنيهِ عضدًا فابقاهُ والدهُ بمصر مسرورًا مستبشرًا وسافر الى الحجاز

وكان المغفور لهُ محمد علي باشا قد انشأ مدرسةً سنة ١٨٢٦ لتعليم العلوم العسكرية سمّاها مدرسة الحنكه فامر بادخالهِ فيها مع انجالهِ محمد سعيد باشا وحسين بك وحليم باشا وغيرهم من الامراء والاعيان . ولم تُطِل عليهِ الاقامة فيها حتى أُرسل مع ثلاثة واربعين تلميذًا غيرهُ في الرسالة المصرية الى باريس ليدرسوا في المدرسة التي أُعدّت للتلامذة مصر تحت ادارة الموسيو جومار احد العلماء الفرنسويين ودمرجان بك احد المفرين من العائلة المحمديّة العلويّة . وكان من

جملة مَن ذهب في الرسالة المذكورة سعيد باشا (والي مصر) واسماعيل باشا (خديو مصر) واحمد باشا وحليم باشا وحسين بك من فروع العائلة العلويّة وعلي باشا مبارك وعلي باشا شريف ومراد باشا حلمي وعلي باشا ابريم وغيرهم من سراة مصر واعيانها

ومن مزايا هذه المدرسة ان الطلبة كانوا مخيّرين في اتباع ما يميل اليهِ طبعهم ويستحسنهُ ذوقهم من العلوم والمِهَن . وكان المرحوم شريف باشا ميّالاً بالطبع الى تعلُّم العلوم العسكرية واكتساب الفنون الحربيّة فاستعدَّ للدخول في مدرسة سان سير المعدَّة لتعليم ضبّاط العساكر ثم امتُحن الامتحان اللازم وانتظم في سلك تلامذتها سنة ١٨٤٣ واقام فيها سنتين حاز فيهما قصبات السبق على اقرانهِ . ثم دخل مدرسة تطبيق العلوم الحربيّة سنة ١٨٤٥ وقضى فيها سنتين ثم انتظم في سلك الجنود الفرنسوية عملاً بمقتضى قوانين تلك المدرسة وتمرّن تمرُّنهم اربع سنين متوالية حتى توفي محمد علي باشا وخلفهُ عباس حلمي باشا واسترجع الرسالة المصريّة سنة ١٨٤٩ فرجع الشريف من الجملة وقد نال رتبة يوزباشي اركان حرب في الجيش الفرنسوي فألحق بالجيش المصري باقيًا على رتبتهِ وتعيَّن من اركان حرب سليمان باشا الفرنسوي الى سنة ١٨٥٣ واشتدَّت المودّة بينهُ وبين رئيسهِ سليمان باشا ولكنهُ لم يُقدِم عن رتبتهِ فترك وظيفتهُ مدّةً وانحاز الى البرنس حليم باشا فوظفهُ في دائرتهِ بوظيفة كاتب يدٍ حيث بقي الى سنة ١٨٥٣

ولمّا توفي المرحوم عباس باشا وخلفهُ المرحوم سعيد باشا كافأ الفقيد بما استحقَّ من العناية والالتفات فجعل باكورة اعمالهِ ترقيتهُ الى رتبة امير آلاي الحرس الخصوصي ثم الى رتبة اللوا بعد سنتين . وفي السنة التالية اي سنة ١٨٥٦ تزوَّج بابنة سليمان باشا الفرنسوي وكان يومئذٍ قائدًا عامًّا للجيش المصري . وبزوال الموانع من امام الفقيد بَدَت اوصافهُ ومناقبهُ للعيان واشتهر بالحزم والمقدرة والعفّة والاستقامة من تلك الايام . ولذلك رأى سعيد باشا ان ينقلهُ من دوائر الحربيّة الى دوائر الادارة فعيَّنهُ ناظرًا للخارجيّة سنة ١٨٥٧ وابقاهُ في ذلك المنصب الى يوم وفاتهِ سنة ١٨٦٣ . ولمّا تولّى اسماعيل باشا الخديوي السابق زادهُ اكرامًا واعلاهُ مقامًا فعيَّنهُ ناظرًا للداخلية مع نظارة الخارجيّة . فحقّق امانيَّهُ وشدَّد آمالهُ بما كان يبدي من الغيرة على صالح البلاد والحكومة وعفّة النفس واستقامة السيرة وحب الوطن حتى انهُ لما سافر الخديوي السابق الى الاستانة سنة ١٨٦٥ اولاهُ من الشرف انهُ جعلهُ قائمقام مصر في غيابهِ دلالةً على تمام ثقتهِ بهِ واعترافًا بما هو عليهِ من سداد الراي والحزم والتدبير . ولما عاد الخديوي السابق من الاستانة عهد اليهِ بنظارة المعارف مع نظارة الخارجية ثمَّ برئاسة مجلسهِ الخصوصي سنة ١٨٦٧ وتقلَّب بعد ذلك في كل مناصب الحكومة من نظارة داخلية وخارجية وحقانية وتجارة ورئاسة مجلس النظّار

سنة ١٨٨١ واسس حينئذٍ مجلس نوّاب البلاد انقاء لمكروهٍ ظهر في الحوادث العرابيّة ثم نحّي عنها سنة ١٨٨٢ ثم عاد اليها بعد تدمير الاسكندرية و بقي فيها الى ان رزئت مصر بثورة السودان واشتدّ خطبها فابت نفسهُ البقاء في منصبٍ فتنحّى شريفًا كما عاش شريفًا

واعتزل وظائف الحكومة منذ سنة ١٨٨٤ وانقطع بعدها الى الدرس والمطالعة حتى اعياهُ الداء ولم ينجع فيهِ الدواء . وقد نال اسنى علامات الشرف جزاء خدمتهِ واعترافًا بامانتهِ فرُقّي الى رتبة المشيريّة في عهد المغفور لهُ السلطان عبد العزيز وحاز النشان العثماني والمجيدي من الدرجة الاولى والنشانات الاولى من الدول الاوربية على اختلافها

وقد اتاح لنا الحظُّ التعرُّف بذلك الشهم الفاضل في اواسط سنة ١٨٨٥ بعد ان اعتزل اشغال الحكومة وانقطع الى الدرس والعلم فدخلنا عليهِ ذات يومٍ وقد اكبَّ على كتابٍ في علم الفلك فما ادّينا واجب الاحترام حتى تحوّل بنا الحديث الى علم الفلك وما اتّصل اليهِ باجتهاد العلماء في هذا الزمان فتجاذبنا اطراف الكلام وتبادلنا الافكار زمانًا حتى تبيّن لنا انهُ رحمهُ الله غاص عباب ذلك العلم الى ان ادرك دقائقهُ واستجلى غوامضهُ وان قدمهُ في السياسة لم تكن ارسخ منها في العلم ولا سيّما الفلك . ثم اكثرنا من التردد عليهِ والتنقُّل في الاحاديث معهُ حتى تجلّت لنا طبائعهُ وظهرت قوى نفسهِ في جميع مظاهرها وعلمنا من حالهِ بالمراقبة واعمال النظر ما ربّما عزّ وصول الغير الى معرفتهِ ممّن كانت علاقتهُ معهُ لانجاز الاعمال او قضاء المصالح . فما كان يدهش مجالسيهِ فيهِ ذاكرتهُ الواعية وقريحتهُ الوقّادة و بصيرتهُ النفّاذة . فانهُ كان يحفظ الاعداد حفظًا عجيبًا فيسرد اعداد ابعاد القريب والبعيد من الكواكب السيّارة والثابتة واقدارها وزواياها اختلافها ونحو ذلك من الوف الوف الاميال الى اعشار اعشار القراريط ومن ربوات السنين الى اعشار الثواني . ولم يكن يحتاج لحفظها الى تكرارٍ كثيرٍ وكان يدرك مؤدّى الاقوال والآراء حالَ الوقوف على مبادئها ويرى اوجه الضعف والقوّة فيها ببصيرة ثاقبة . ويطرب بتصوُّر هيئة الكواكب في السماء من حيث حركاتها وارضاعها و بديع نظامها طربًا عظيمًا و يعتريهِ عند تأمُّل عظمة الكون شبه ذهولٍ يقرب بهِ من الغيبوبة عن حديث مَن حولهُ من مجالسيهِ . وكان شديد الكَلَف بالمباحث العقلية مولعًا بالاستقصاء عن اصول الاشياء . وكان بارعًا في اللغات متضلعًا من العربية والتركية والفرنسوية حتى كان محدثهُ بهذه اللغات لا يعلم ايٌّ منها هي لغتهُ الاصليّة ويقال انهُ كان بارعًا في الفارسية ايضًا

وكل خبيرٍ بالطباع ناقدٍ للاخلاق كان يسهل عليهِ معرفة اخلاق الفقيد في زمانٍ غير طويلٍ فمزاجهُ الدموي وصراحة اقوالهِ وتجاهرهُ بافكارهِ وعدم تكلفهِ لما ليس من طبعهِ كلها كانت

تريك اخلاقه وطباعهُ ظاهرةً واضحةً على مرآة نفسهِ وتُحقّق لك ما شهدت بهِ افعالهُ واعترف بهِ الناس من محض الودواخلاص العلويّة وصفاء النيّة عدم الحقد والرغبة في الخير مع اجتناب الضير

وكان على جانب عظيم من الحلم : اتاهُ يومًا عمّال لهُ ونحن عندهُ فشكوا ما نالهم من أذى بعض الموظفين لهم وتعدّيهم عليهم بما اهاج الحاضرين سماعهُ . فاغتاظ الفقيد غيظًا شديدًا حتى لم يعد يستطيع على السكوت صبرًا فقال اعوذ بالله من شرّ هولاء الناس الذين لم اعاملهم الاّ بالخير فاني لا اعلم كيف يطاوع الانسان قابهُ على مبادادة عدوهِ بالاذى فكيف بعامل الحسن اليهِ بالشر . ولما سكن غيظهُ قال لعمالهِ اذهبوا وقابلوهم بالاحسان فانكم تغلبونهم . ذلك مع قدرتهِ على الاضرار بهم اشدّ الضرر

حليمٌ اذا ما الحلمُ زيّن اهلهُ مع الحلم في عين العدوّ مهيبُ

وكان الفقيد حسن الطلعة باذي الهيبة جليل المنظر ممتلئ البدن طويل القامة اذا حدّث في امر يهمّهُ ابرقت اسرتهُ واحمرّت وجنتاهُ وانقدت بالذكاء عيناهُ وانطلق لسانهُ في المجاز واكثر من التشبيه ومال الى الاطناب حتى تخاله قد نفض غبار الشيخوخة وعفا آثار ضعفها وخمولها واسترجع غضاضة الشبيبة واعتزّ بقوّة الصبا

وكان عالمًا بافتقار البلاد ودائها خبيرًا بما يسدّ حاجتها ويقرب شفاءها محبًّا بالمقتطف ترحيب الكرام عند حلولهِ هذه الديار وحثّ ابناء الوطن على الاقبال عليهِ وتنشيطهِ . وكان لهُ مرشدًا الى مايهِ الفائدة مشيرًا بما فيهِ حسن العائدة اثابهُ الله عنهُ احسن ثواب وافاض عليهِ سحائب رحمتهِ ورضوانهِ

واصابهُ منذ اشهر داءٌ عياهُ حار فيهِ الاطباء وزعم اكثرهم انهُ داء الكبد ولما لم ينجع فيهِ دواء اشاروا عليهِ بتغيير الهواء والتداوي عند مشاهير الاطباء فبارح بر مصر في عائلتهِ وما بلغ مدينة غراتس بالنمسا حتى دعاهُ داعي المنون فاجابهُ تاركًا دار الشقاء الى دار السعادة والبقاء

وما الناسُ الاّ راحلٌ بعد راحلٍ الى العالم الباقي من العالم الفاني

فلما بلغ منعاهُ الحضرة الفخيمة الخديوية ورئيس نظار الحكومة المصرية صدر الامر في ٣٠ افريل (نيسان) بقفل الدواوين حدادًا عليهِ فحدّت مصر بمن فيها . وبعث رئيس النظار رسالةً برقية الى ابن الفقيد يقول فيها ان اسفنا على الفقيد يقدر حبنا لهُ

حزني عليك بقدر حبّكَ لا أرى يومًا على هذا وذاكَ مزيدا

ثم أُتي بجثتهِ في ٢٧ افريل (نيسان) الى القاهرة وسار في جنازتهِ الامراء والوزراء والعظماء بمزيد الاحتفال والاجلال ودفنوهُ في حجرة يردد فيها قول مَنْ قال

"حجرة" حشوها وفاءٌ وحلمٌ وندًى فاضلٌ ولبٌّ اصيلُ
وعفافٌ عمّا يشينُ وحكمٌ راجح الوزن بالرواسي عيلُ